عظماء بلا مدارس

"في تقديري أن الشهادة العلمية أساس
يعتمد عليه الإنسان بعد عون الله عز وجل،
ولكن الاهتمام الأساسي على عقلية الإنسان،
والجامعة الكبرى هي جامعة الحياة"

الملك فهد بن عبد العزيز - رحمه الله -

هذا أمر غير مهم إطلاقاً، ولذلك هو مثير

- أغاثا كريستي -

أغاثا كريستي (١٨٩٠ - ١٩٧٦م):

- أغاثا .... صاحبة المليارى إلهام -

لو وضعت مجموعة الكتب التي طبعت من مؤلفاتها فوق بعضها لشكلت ٢٠ ٠٠٠ كومة يساوي ارتفاع كل كومة منها برج إيفل بباريس، أو ٣٤٠٠ كومة يبلغ ارتفاع كل منها بقدر ارتفاع قمة إيفرست (أعلى قمة في العالم).

تقول الروائية الإنكليزية فرجينيا وولف (التي عاصرت أغاثا كريستي): "عندما تتحدث عن النساء الكاتبات تحتاج إلى أقصى ما يمكن من الامتداد... لقد كانت الرواية وما زالت من أسهل ما يمكن للمرأة أن تكتبه".

حسناً!... إذا كان عدد الروائيات الإنكليزيات يصعب إحصاؤه -كما تراه وولف- فما الذي جعلنا بالكاد لا نقرأ إلا لـ "أغاثا كريستي" من الروائيات الإنكليزيات؟ وما الذي جعل أغاثا أكثر كاتب بريطاني يُقرأ له، يليها شكسبير كما أعلنت ذلك منظمة "اليونسكو"؟ وما الذي جعلها أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها؟ وما الذي جعل أغاثا أشهر كتاب القصص البوليسية في سائر عصور التاريخ؟ وما الذي ميزها لكي يقارب ما طبع من رواياتها وكتبها ألفي مليون نسخة؟

للإجابة على هذه التساؤلات دعونا نبدأ... مع أغاثا...

ولدت أغاثا مالاي كلاريسا ميللر في بلدة توركواري (الآن جزء من توربيي) بمقاطعة ديفون جنوب إنكلترا عام ١٨٩٠ م من أب أميركي وأم إنكليزية، وكانت صغرى ثلاثة أولاد لهما، عاشت أغاثا طفولة سعيدة في مسقط رأسها؛ إذ كان والدها مرحاً محباً للحياة وأمها ذكية طموحة "تعتقد اعتقاداً راسخاً أن أطفالها قادرون على كل شيء" كما تصفها أغاثا.

لم تذهب أغاثا قط إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها على يد أمها في المنزل حسب التقليد المتبع آنذاك في بلدتها، ومن المفارقات العجيبة أن أغاثا عانت من صعوبات في فهمها لقواعد اللغة وكانت تعاني في صغرها من تهجي الحروف.

كان الفضل لوالدة أغاثا في توجهها إلى الكتابة والتأليف، إذ شجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، فبينما كانت أغاثا طريحة الفراش من برد شديد أصابها، قالت لها أمها:

- خير لك أن تقطعي الوقت بكتابة قصة قصيرة وأنت في فراشك.

فأجابت أغاثا على الفور: ولكني لا أظن أني قادرة على ذلك.

- بلى تقدرين، حاولي فقط وسترين.

فقضت أغاثا السنوات القليلة التالية في كتابة قصص " قابضة للصدر" كما تصفها بنفسها، بالإضافة إلى مقطوعة من الشعر. ثم قامت بكتابة أولى رواياتها وهي رواية " ثلوج على الصحراء" التي رفضها الناشرون، ولم تكن قد حظيت أصلاً بإعجاب أغاثا، ولم تنشر هذه الرواية قط. وبعد ذلك خطر لها كتابة رواية بوليسية، فقامت بكتابة رواية " القضية الغامضة في ستايلز" التي رفضها ستة ناشرون، وقد اشتد بأغاثا الطرب عندما قبلها الناشر السابع ونشرت هذه الرواية التي أدخلتها إلى عالم الكتاب الواسع الرحيب. وكانت حين كتابتها في مستشفى تابع للصليب الأحمر إبان الحرب العالمية الأولى، فقد تطوعت للعمل

كممرضة تساعد جرحى الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير وتركيب الأدوية وتعرفت على السموم وتراكيبها، ما كان له أثر بالغ في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم؛ إذ أغنت هذه التجربة معلوماتها عن السموم ومركباتها وتأثيراتها الجسدية وما قد تسببه عن مخاطر على صحة الإنسان، والقارئ لروايات أغاثا سيخرج بحصيلة جيدة من المعلومات الطبية وأضرارها.

وفي تلك الفترة تقدم لها الكثير من الخاطبين الأثرياء والفقراء، إلا أنها تزوجت طياراً عسكرياً يدعى "أرشيبالد كريستي" ١٩١٤م ومنه أخذت لقبها الذي لازمها طوال حياتها إلا أنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨م بعد وفاة والدتها بقليل؛ إذ كانت أغاثا قد افتقدت معه الصحبة المشتركة أو"الرفقة الزوجية" كما صرحت بذلك أغاثا.

إلا أنها تزوجت بعد ذلك بسنتين عالم الآثار الشهير السير "ماكس مالوان" الذي أتاح لها زيارة معظم البلدان الشرق الأدنى فزارت العراق والشام ومصر وبلاد فارس وغيرها فدارت أحداث عدد من رواياتها في هذه البلدان، مثل: "موت على النيل" و"لقاء في بغداد" و"جريمة في بغداد"، وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها "جريمة في قطار الشرق".

لقد كان استقرار أغاثا مع زوجها الجديد انعكاساً إيجابياً على استقرارها الفكري والنفسي، يقول زوجها مالوان: شيدنا لأغاثا حجرة صغيرة في نهاية البيت، فكانت تجلس منذ الصباح، وتكتب رواياته بسرعة، وتطبعها بالآلة الكاتبة مباشرة. وقد ألفت ما يزيد على ست روايات بتلك الطريقة موسماً بعد آخر.

حتى حينما كانت أغاثا تشارك في بعثات التنقيب مثل بعثة التنقيب البريطانية في نينوى (شمال العراق) برئاسة الدكتور تومس كامبل، وكذلك بعثة الأربحية برئاسة زوجها عام ١٩٣٢م، كانت تجد الوقت الكافي للكتابة على الرغم

من جهدها التنقيبي، حيث لا يتوفر لها السكن في موقع التنقيب كانت تنصب لها خيمة خاصة بعيداً عن ضجيج الحفر لتعمد إلى كتابة رواياتها وقصصها فيها.

أما قصصها ورواياتها فتتميز بدقة حبكتها وترابط أحداثها ومنطق تسلسلها، بالإضافة إلى الكم الهائل من الألغاز والحبكات الغامضة سواء أكان ذلك في البناء القصصي أو في الحوار أو الشخصيات أو حتى في اختيار مواقع الأحداث التي غالباً ما تكون شائقة.

وقد ساعدها خيالها الخلاق في إيجاد تكنيك قصصي يستند إلى الحيلة أو الخدعة كأسلوب إثارة وتشويق مفعم بالغموض، لدرجة أن من يقرأ رواياتها ويستنتج الحل قبل انتهاء الرواية يصدم في النهاية من تناقض تفكيره مع الحل المنطقي الذي أوجدته أغاثا ليقول بعد ذلك الجملة المشهورة التي طالما رددها قراء روايات أغاثا عند قراءة الفصل الأخير:

" ياه... كيف لم انتبه لهذا !؟ "

كما تميزت رواياتها بالغور في أعماق النفس البشرية محللة كوامنها باحثة عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة قلما وجدت عند كتّاب آخرين. كما كانت رواياتها نظيفة شريفة وليس فيها ما يخجل أو يخدش الحياء أو يثير الغرائز.

وكانت أغاثا تقول لنا في كل رواية تكتبها "لا بد أن ينتصر الخير" و"الجريمة لا تفيد". وقد اتسمت كتاباتها ببساطة اللغة وسلاستها، وهذا قد يفسر سبب الرواج العظيم لرواياتها في الأوساط الشعبية في بريطانيا وأوروبا وما وراء البحار كما يفسر سهولة ترجمتها إلى مختلف اللغات.

ولم تكن أغاثا تطمح إلى نيل جائزة نوبل للآداب التي لابد أن يعكس الأديب التفرد في الإبداع والتفوق الأدبي لكي يرشح للحصول عليها، لذلك حافظت

أغاثا على بساطة لغتها وسهولة فهمها؛ لأن همها وحبها يتجه لقرائها، ولم تكن تكترث بآراء النقاد وانتقاداتهم.

حقائق عن أغاثا كريستي:

أغاثا في أواخر أيامها

- كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات القصص القصيرة التي نشرت في ثلاث عشرة مجموعة. وبذلك يكون عدد ما نشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً.
- كتبت أغاثا كريستي ست روايات طويلة رومانسية باسم مستعار هو "ماري ويستماكوت".
- كما كتبت أغاثا ست عشرة مسرحية أشهرها "مصيدة الفئران" التي تعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ، إذ مازالت تعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٣٠م، وقد مثّلت أكثر من ٢٠٠٠٠ مرة حتى كتابة هذا الكتاب عام ٢٠٠٦م.
- أما سيرة حياتها فقد كتبتها من خلال رواية "لوحة غير منجزة" أو " الصورة الناقصة" باسمها المستعار "ماري ويستماكوت" ١٩٣٤م، ثم كتبت "سيرتي الذاتية" بقلمها إلا أنها نشرت عام ١٩٧٧م أي: بعد عام من وفاتها وقد كتب زوجها الثاني جزءاً من سيرتها في مذكراته، بالإضافة إلى سيرتها التي كتبتها الكاتبة الأميركية "جانيت مورغان".
- طبع من كتبها ما يقارب ملياري نسخة، وترجمت أعمالها إلى ما يقارب خمسين لغة حول العالم، وبذلك تصبح مبيعات الروايات التي ألفتها أغاثا

خبر اختفاء أغاثا كريستي يتصدر الصحف البريطانية عام ١٩٢٦م

كريستي تفوق مبيعات الكتب العربية ومؤلفات الكتّاب العرب منذ الدولة الأموية بعشرات الأضعاف. وتفوق نسبة ترجمة أعمالها إلى لغات العالم نسبة ترجمة الأعمال العربية منذ عصر المأمون.

- مبيعات كتبها في سنة ٢٠٠٣ في فرنسا فقط جاوزت الـ٢٠٠٠٠٠٠٠ نسخة.
- حصلت أغاثا على ألقاب عدة في حياتها، منها: "سيدة الرواية البوليسية"، "كاتبة الجريمة الأولى"، "سيدة الأسرار"، " سيدة الموت"...
- احتلت أغاثا مكانة مرموقة في أوروبا والعالم، خاصة في بريطانيا ومما يدل على ذلك أنه وأثناء اختفائها الغامض لمدة ١١ يوماً في ديسمبر عام ١٩٢٦م تطوع آلاف البريطانيين للبحث عنها، بينما قام الملايين بمتابعة أخبار اختفائها عبر الصحف.
- منحت أغاثا وسام الإمبراطورية بدرجة السيدة القائد عام ١٩٧١م.
- ابتكرت أغاثا في رواياتها شخصيات عدة منها: "هيريكيول بوارو" و"الآنسة ماربل" اللتان تعتبران من أشهر الشخصيات الافتراضية في التاريخ.